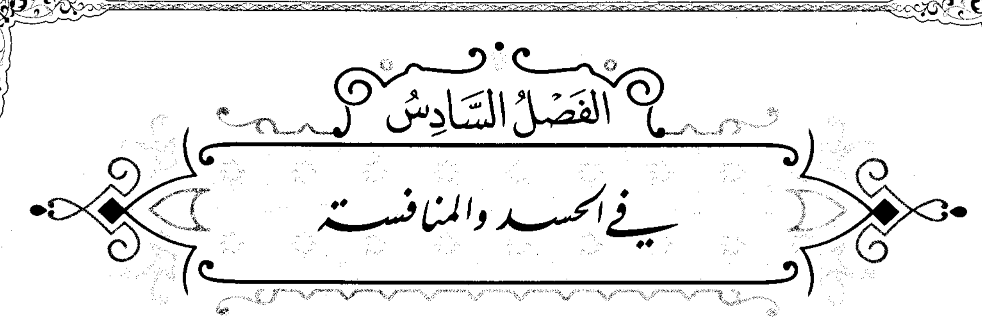


الفَصلُ السَّادِسُ

في الحسد والمنافسة

اعلم : أنَّ الحسد خُلقٌ ذميمٌ مع إضراره بالبدن ، وإفساده الدِّين ؛ حتّىٰ لقد أمر الله تعالىٰ بالاستعاذة من شرِّه ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ وناهِيكَ بحال ذلك شرّاً .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « دَبَّ إليكُمْ داءُ الأُمَمِ قبلَكُمْ البَغضاءُ والحَسَدُ ، وهي الحالقةُ حالقةُ الدِّينِ ، لا حالقةُ الشَّعرِ ، والذي نفسُ محمَّدٍ بيده ؛ لا تُؤمِنُوا حتّىٰ تَحابُّوا ، ألا أنبِّئُكُمْ بأمرٍ إذا فعَلْتُمُوهُ . . تحابَبْتُمْ ؟ أَفشُوا السَّلامَ بينَكُمْ »[1] .

فأخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد ، وأنَّ التَّحابُب ينفيه ، وأنَّ السَّلام يبعث على التَّحابُب ، فصار السَّلام إذاً نافياً للحسد ، وقد جاء كتاب الله تعالىٰ بما يوافق هٰذا القولَ ، قال الله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ قال مجاهد : (إنَّ معناه : ادفع بالسَّلام إساءَةَ المسيء)[2] .

وقال الشاعر[3] : [من البسيط]

قد يلبَثُ النّاسُ حِيناً ليسَ بينَهُمُ وُدٌّ فيزرعُهُ التَّسليمُ واللَّطَفُ

وقال بعض السَّلف : (الحسدُ أوّلُ ذنبٍ عُصي الله تعالىٰ به في السماء ؛ يعني : حسدَ إبليسَ لآدمَ عليه الصلاة والسلام ، وأوّلُ ذنبٍ عُصي الله تعالىٰ به في

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٣٢) عن سيدنا الزبير بن العوّام رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (١٢/ ٢٤/ ١٤٦) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٢٢٥) .

(٣) أورد البيت في « المحاسن والأضداد » (ص ٣٩) ، ونسبه ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (٢٠/ ٦٩) لأبي حفص الشطرنجيّ .

الأرض ؛ يعني : حسدَ قابيلَ ابنِ آدمَ لأخيه حتّىٰ قتله)[1] .

وقال بعض الحكماء : (مَن رضي بقضاء الله تعالىٰ . . رضي الله عنه ولم يُسخِطْه أحدٌ ، ومَن قنع بعطائه . . لم يدخله حسدٌ)[2] .

وقال بعض البلغاء : (الناس حاسدٌ ومحسودٌ ، ولكلِّ نعمةٍ حَسودٌ) .

وقال بعض الأدباء : (ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بمظلومٍ من الحَسود ؛ نفَسٌ دائم ، وهمٌّ لازم ، وقلبٌ هائم)[3] .

فأخذه بعض الشعراء فقال : [من المنسرح]

إنَّ الحَسُـودَ الظَّلُـومَ فـي كُـرَبٍ ... يَخـالُـهُ مَـن يَـراهُ مَظلُـومـا

ذا نَفَـسٍ دائـمٍ علـىٰ نَفَـسٍ ... يُظهِـرُ منـهُ مـا كـان مَكتُـومـا

ولو لم يكن من ذمِّ الحسد إلا أنَّه خُلقٌ دنيءٌ يتوجَّه نحو الأكفاء والأقارب ، ويختصُّ بالمُخالِط والمُصاحِب . . لكانت النَّزاهة عنه كَرماً ، والسَّلامة منه مَغنَماً ، فكيف وهو بالنفس مُضِرٌّ ، وعلى الهمِّ مصِرٌّ ؛ حتّىٰ ربَّما أفضىٰ بصاحبه إلى التَّلف من غير نِكايةٍ بعدوٍّ ، ولا إضرار بمحسود ؟!

وقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه : (ليس في خِصال الشرِّ أعدلُ من الحسد ، يقتلُ الحاسدَ قبل أن يصل إلى المحسود)[4] .

وقال بعض الحكماء : (يكفيك من الحسود : أنْ يغتمَّ وقتَ سرورك)[5] .

وقيل في منثور الحكم : (عقوبةُ الحاسد من نفسه)[6] .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦٥٩) من قول ابن عيينة رحمه الله تعالىٰ ، وأورده في « عيون الأخبار » (٢/ ١١) .

(٢) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٦) .

(٣) أورده في « الموشىٰ » (ص ٥) ، ورواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٢١١) من قول الخليل بن أحمد رحمه الله تعالىٰ .

(٤) أورده المبرّد في « الفاضل » (ص ١٠٠) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٤١٤) .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٩) من قول سيدنا عثمان رضي الله عنه ، وفي « المستطرف » (٢/ ٥١) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٢) .

وقال الأصمعيُّ : (قلت لأعرابيٍّ : ما أطولَ عمرَكَ !! فقال : **تركتُ الحسدَ فبقيتُ**)[1] .

وقال رجلٌ لشُرَيح القاضي : (**إنِّي لأحسدُك علىٰ ما أرىٰ من صبرك على الخصوم** ، ووقوفك علىٰ غامض الحُكم ، فقال : **ما نفعك اللهُ بذلك ، ولا ضرَّني**)[2] .

وقال عبد الله بن المعتزّ[3] : [من مجزوء الكامل]

اصبِـرْ علـىٰ كَيْـدِ الحَسُـو ... دِ فـإنَّ صَبْـرَكَ قـاتِلُـهْ
النّـارُ تـأكُـلُ بعضهـا ... إنْ لـم تجِـدْ مـا تـأكُلُـهْ

وحقيقةُ الحسد : شدّةُ الأسىٰ على الخير أن يكونَ للناس الأفاضل ، وهو غيرُ المنافسة .

وربَّما غلط قومٌ فظنُّوا **أن المنافسة في الخير هي الحسد** ، وليس الأمرُ كما ظنُّوا ؛ **لأنَّ** المنافسةَ طلبُ التشبُّه بالأفاضل من غير إدخال ضررٍ عليهم ، **والحسدَ مصروفٌ إلى الضرر** ؛ لأنَّ غايته أن يعدم الفاضلُ فضلَه من غير أن يصيرَ الفضل له ، **فهٰذا هو الفرق بين المنافسة والحسد** .

فالمنافسة إذاً فضيلةٌ ؛ لأنَّها داعيةٌ إلى اكتساب الفضائل ، والاقتداء بالأخيار والأفاضل .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **المؤمنُ يَغبِطُ ، والمنافقُ يحسُدُ** »[4] .

---

(١) رواه في « الطيوريّات » (٤٤٥) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٦٦٠) .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٤/ ١٣٧) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (٢/ ٤٠٣) .
(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٩٥) من قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ .

وقال الشاعر[1] : [من السريع]

نافِسْ على الخَيراتِ أهلَ العُلا فـإنَّمـا الـدُّنيـا أحـادِيـثُ
كـلُّ امـرئٍ فـي شـأنِـهِ كـادحٌ فـوارثٌ منهُـمْ ومـورُوثُ

واعلم : أن دواعيَ الحسد ثلاثة :

أحدها : بغض المحسود ، فيأسىٰ عليه بفضيلةٍ تظهر ، أو منقبةٍ تشكر ، فيثير حسداً قد خامر بُغْضاً .

وهٰذا النوع لا يكون عامّاً وإن كان أضرَّها ؛ **لأنه ليس يبغضُ كلَّ الناس** .

والثاني : أن يظهر من المحسود فضلٌ يعجز عنه الحاسد ، فيكره تقدُّمَه فيه ، واختصاصَه به ، فيثير ذلك حسداً لولاه . . لكفَّ .

وهٰذا أوسطُها ؛ لأنَّه لا يحسد الأكفاءَ ومَن دنا ، **وإنَّما يختصُّ بحسد مَن علا** ، وقد يمتزج بهٰذا النوع ضربٌ من المنافسة ؛ ولٰكنَّها مع عجز ، **فلذلك صارت حسداً** .

والثالث : أن يكونَ في الحاسد شحٌّ بالفضائل ، وبخلٌ بالنِّعَم ، **وليست إليه فيمنعَ منها ، ولا بيده** فيدفعَ عنها ؛ **لأنَّها مواهبُ قد منحها الله تعالىٰ مَن شاء** ، فيسخطُ على **الله تعالىٰ** في قضائه ، ويحسد علىٰ ما منح من عطائه وإن كانت **نِعَمُ الله تعالىٰ** عنده أكثرَ ، ومِنَحُه عليه أظهرَ .

وهٰذا النوع من الحسد أعمُّها وأخبثُها ؛ إذ ليس لصاحبه راحةٌ ، ولا لرضاه غايةٌ ؛ **فإن اقترن بشرٍّ وقدرة** . . كان بَواراً وانتقاماً ، **وإن صادف عجزاً ومَهانة** . . كان كَمَداً وسَقاماً .

وقد قال عبد الحميد : (**الحسود من الهمِّ كساقي السمِّ ، فإذا سرىٰ سمُّه . . سُرِّي عنه همُّه**) .

---

(١) أورد البيتين في « البيان والتبيين » (٢/ ١٠٤) .

واعلم : أنَّ بحسَب فضائل الإنسان وظهور النعمة عليه يكون حسدُ الناس له ؛ **فإن كثر فضلُه . . كثر حُسّادُه** ، وإن قلَّ . . قلُّوا ؛ لأنَّ ظهور الفضل يثير الحسد ، وحدوثَ النعمة يُضاعف الكَمَد ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **استعِينُوا علىٰ قضاء الحوائج بسَتْرها ؛ فإنَّ كلَّ ذي نِعمةٍ محسودٌ** »[1] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**ما كانت لله علىٰ أحدٍ نعمةٌ إلا وجد لها حاسداً** ، ولو كان الرجلُ أقومَ من القِدْح . . لَما عدم غامزاً)[2] .

وقد قال الشاعر[3] : [من البسيط]

إنْ يحسُدُوني فإنِّي غيرُ لائمِهِمْ   قبلي منَ النّاسِ أهلُ الفضلِ قد حُسِدُوا
فدامَ لي ولهُمْ ما بي وما بِهِمُ   وماتَ أكثرُنا غيظاً بما يَجِدُ

وربَّما كان الحسد منبِّهاً علىٰ فضل المحسود ، ونقص الحسود ؛ كما قال أبو تمام الطائي[4] : [من الكامل]

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ   طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ   ما كان يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ
لولا التَّخوُّفُ للعواقبِ لم تَزَلْ   للحاسدِ النُّعْمىٰ على المَحسُودِ

فأمّا ما يستعمله مَن كان الحسدُ عليه غالباً ، وكان طبعُه إليه مائلاً ؛ لينتفيَ عنه فيُكفاه ، ويسلمَ من ضرره وعَدْواه . . **فأمورٌ هي له حَسمٌ** ، إن صادفها عَزمٌ .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٢٢٨) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٥/٢١٥) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ؛ وفيه وفي (ب ، د) : (الحوائج بالكتمان) .

(٢) رواه في « جمهرة الأمثال » (١/٤٠٢) ، و« روضة العقلاء » (٢/٥٣٨) ، **والقِدْحُ** : السهم المُقوَّم قبل أن يُراشَ ويُنصَلَ .

(٣) البيتان لبشار بن برد في « ديوانه » (٣/٩٥) ، ونسبهما في « بهجة المجالس » (١/٤١٣) للبيد بن عطارد بن حاجب التميميّ .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (١/٣٩٧) ؛ وفي (أ) : (طيب نشر العود) ، **والعَرف** : الرائحة طيبة كانت أو خبيثة ؛ ولذا أضيف إلى الطيب ، **يعني** : كما يتضوع رائحة العود بالنار . . كذلك تنتشر الفضيلة بلسان الحسود .

منها : اتِّباع الدِّين في اجتنابه ، والرجوع إلى الله تعالىٰ في ندبه وآدابه ، **فيقهر نفسه علىٰ مذموم خُلقها** ، وينقلها عن لئيم طبعها وإن كان نقلُ الطباع عسراً ؛ **لـكنْ بالرياضة والتدريج يسهل منه ما استصعَب** ، ويُحبَّبُ منه ما أتعَب ، وإن تقدَّم قول القائل : (**مَن ربُّه خلقَه كيف يُخلِّي خُلقَه ؟!**) .

غير أنه إذا عانىٰ تهذيبَ نفسه . . تظاهر بالتخلُّق دون الخُلق ، **ثم بالعادة يصير كالخُلق** .

قال أبو تمام الطائيّ[1] : [من الطويل]

فلـم أَجِـدِ الأخـلاقَ إلاّ تخلُّقـاً ولـم أَجِـدِ الإفضـالَ إلاّ تَفَضُّـلا

ومنها : العقل الذي يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ، ويستنكف من هُجنة مَساويه ، **فيذلِّلُ نفسَه أنَفةً** ، ويقهرُها حَميّةً ، **فتذعن لرشدها** ، وتجيب إلىٰ صلاحها ، وهـٰذا **إنَّما يصحُّ لذي النفس الأبيّة** ، والهمّة العليّة وإن كان ذو الهمّة يجلُّ عن دناءة الحسد .

وقد قال الشاعر[2] : [من الطويل]

أبِـيٌّ لـه نَفْسـانِ نفـسٌ زَكِيّـةٌ ونفسٌ إذا ما خافَتِ الظّلمَ تَشمُسِ

ومنها : أن يستدفع الضرورةَ ، ويتوقَّى الأثَرَةَ ، **ويعلم أنَّ نِكايته في نفسه أبلغُ** ، ومن المحسود أبعدُ ، فيستعمل الحزم في دفع ما كدَّه وأجهده ؛ **ليكون أطيبَ نفساً** ، **وأهنأَ عيشاً** .

وقد قيل : (**العجبُ لغفلة الحُسَّاد عن سلامة الأجساد !!**)[3] .

---

(١) البيت في « ديوانه » (٣/ ١٠٥) .

(٢) أبيٌّ : أي : الممدوح أبي لا ينقاد لنفسه الأمارة بالسوء ، وتشمس : تبدي عداوتها لمن يخاف ظلمه .

(٣) أورده في « ربيع الأبرار » (٣/ ٢٨٨) من قول سيدنا علي رضي الله عنه ، وفي « نثر الدرّ » (٤/ ١٩٢) .

وقال الشاعر[1] : [من الطويل]

بصيـرٌ بـأعقـابِ الأمـورِ كـأنَّمـا يَرىٰ بصوابِ الرأي ما هُوَ واقعُ

ومنها : ما يرىٰ من نفور الناس عنه ، وبُعدهم منه ، فيخافهم : **إمّا علىٰ نفسه من عداوة ، أو علىٰ عِرضه من مَلامة** ، فيتألَّفهم بمعالجة نفسه ، ويراهم إن صلحوا أجدىٰ نفعاً ، وأخلصَ وُدّاً .

وقال ابن العميد[2] : [من الكامل]

داوىٰ جَوىً بجَوىً وليس بحازمٍ مَـن يَستكِـفُّ النّـارَ بـالحَلْفـاءِ

وقال المؤمَّلُ بن أُمَيل[3] : [من البسيط]

لا تَحسِبُونـي غنيّاً عـن مـودّتِكُمْ إنّـي إليكُـمْ وإنْ أيسَـرْتُ مفتَقِـرُ

ومنها : أن يساعد القضاءَ ، ويستسلم للمقدور ، **ولا يرىٰ أن يغالب قضاءَ الله تعالىٰ** ، فيرجعَ مغلوباً ، **ولا أن يعارضَه في أمره** ، فيُردَّ مسلوباً محروباً .

وقد قال أردشير بن بابك : (**إذا لم يساعِدْنا القضاءُ . . ساعَدْناه**)[4] .

وقال محمود الورّاق[5] : [من مجزوء الخفيف]

قَـــدَرُ اللهِ كـــائـــنٌ حيـــنَ يُقضـــىٰ وُرُودُهُ

(١) أورد البيت في « عيون الأخبار » (١/ ٣٥) ، و« العقد الفريد » (٢/ ٢٥١) .

(٢) أورد البيت في « التذكرة الحمدونية » (٥/ ٥٢) ، و« يتيمة الدهر » (٣/ ٢٠٤) ، **والجوىٰ** : مرضٌ مزمنٌ في القلب أو في الصدر ، **والجوىٰ أيضاً** : احتراق القلب من شدة الوجد والعشق ، **والحلفاء** : نوع من الحشيش يوقد به النار ؛ **والمعنىٰ** : مداواة احتراق القلب من الحسد بمعاداة الناس ليست معقولة ؛ لأنه كالذي يمنع سراية النار بحائط من الحلفاء !!

(٣) أورد البيت في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٩٠) ، و« الحماسة البصرية » (٣/ ١٠٤٣) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٧) ؛ أي : ساعدناه باتباعه ورضاه .

(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص ٢٤٩) .

قَــدْ مَضَــىٰ فِيــكَ عِلْمُــهُ وانتهــىٰ مــا يُــرِيــدُهُ
وأخـــو الحَـــزْمِ حَـــزْمُـــهُ ليـــس ممّـــا يَـــزِيـــدُهُ
فـــأَرِدْ مـــا يكـــونُ إنْ لـــم يكُـــنْ مـــا تُـــرِيـــدُهُ

فإن أظفرته السَّعادةُ بأحد هٰذه الأسباب ، وهدَته المَراشد إلى استعمال الصَّواب . . سلِم من سَقامه ، وخلَص من غَرامه ، واستبدل بالنقص فضلاً ، واعتاض من الذمِّ حمداً .

ولَمَن استنزل نفسَه عن مَذمّة ، وصرفها عن لائمة . . فهو أظهر حزماً ، وأقوىٰ عزماً ممَّن كفَتْه النفسُ جهادَها ، وأعطَتْه قِيادَها ؛ ولذلك قال عليُّ بن أبي طالب عليه السلام : (خِيارُكُمْ كلُّ مُفتَّنٍ توّابٍ)[1] .

وإن صدَّته الشِّقوة عن مَراشده ، وأضلَّه الحرمان عن مقاصده ، فانقاد للطبع اللئيم ، وغلب عليه الخُلق الذَّميم ، حتّىٰ ظهر حسدُه ، واشتدَّ كمَدُه . . فقد باء بأربع مَذامَّ :

إحداهنَّ : حسرات الحسد ، وسَقام الجسد ، ثم لا يجد لحسرته انتهاءً ، ولا يأمُل لسَقامه شفاءً ، وقد قال ابن المعتزّ : (الحسد داء الجسد)[2] .

والثانية : انخفاض المنزلة ، وانحطاط الرُّتبة ؛ لانحراف الناس عنه ، ونفورهم منه ، وقد قيل في منثور الحكم : (الحسود لا يسود)[3] .

والثالثة : مقتُ الناس له ، حتّىٰ لا يجدَ فيهم محبّاً ، وعداوتُهم له ، حتّىٰ لا يرىٰ فيهم وليّاً ، فيصير بالعداوة موتوراً ، وبالمقت مزجوراً ؛ ولذلك قال النبيُّ

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٧١٨) ، وهناد في « الزهد » (٩٠٩) ، ورواه البزّار في « مسنده » (٧٠٠) عن سيدنا عليٍّ رضي الله عنه مرفوعاً ؛ كما في (ب) ، ومُفتّن : اسم مفعول ، يقال : فتّنه إذا أوقعه في الفتنة ؛ أي : كل ممتحن يمتحنه الله تعالىٰ بالذنوب ثم يتوب عليه ، ثم يعود ثم يتوب عليه سبحانه .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥١) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥١) ، و« البصائر والذخائر » (١/ ٢٣٢) .

صلى الله عليه وسلم : « **شرُّ الناسِ مَن يبغضُ الناسَ ويبغضُونَه** »[1] .

والرابعة : إسخاطُ الله تعالىٰ في معارضته ، واحتقاب الأوزار في مخالفته ؛ **إذ ليس يرىٰ قضاءَ الله تعالىٰ عدلاً** ، ولا لنعمه من الناس أهلاً ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ الحسدَ يأكُلُ الحَسَناتِ كما تأكُلُ النّارُ الحَطَبَ** »[2] .

وقال عبد الله بن المعتزّ : (**الحاسدُ مغتاظٌ علىٰ مَن لا ذنبَ له** ، بخيلٌ بما لا يملكه ، طالبٌ لما لا يجده)[3] .

وإذا بُلي الإنسان بمَن هـٰذه حالُه من حُسّاد النِّعَم وأعداء الفضل . . **استعاذ بالله من شرِّه** ، وتوقّىٰ مصارع كيده ، **وتحرَّز من غوائل حسده** ، وبعُد عن ملابسته وإدنائه ؛ لعَضْل دائه ، وإعواز دوائه ؛ فقد قيل : (**حاسدُ النعمة لا يرضيه إلا زوالُها**)[4] .

وقال بعض الحكماء : (**مَن ضرَّ بطبعه . . فلا تأنسْ بقربه** ؛ فإنَّ قلبَ الأعيان صعبُ المَرام) .

وقال عبد الحميد : (**أسدٌ تقاربه خيرٌ من حسودٍ تراقبه**) .

وقال محمود الورّاق[5] : [من الكامل]

أعطَيتُ كلَّ النّاسِ من نفسي الرِّضا   إلا الحَسُـودَ فـإنَّــه أعيـانــي
مـا إنَّ لــي ذنبـاً إليــهِ علِمْتُــهُ   إلاّ تظـاهــرُ نعمــةِ الــرَّحمـٰـنِ
وأبــىٰ فمـا يُـرضيــهِ إلاّ ذِلّتــي   وذَهـابُ أمـوالـي وقَطـعُ لسـانـي

---

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٧٠٧) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/٣١٨) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .
(٢) رواه أبو داوود (٤٩٠٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٨٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٢) ، و« نثر الدرّ » (٣/١٤٩) .
(٤) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦٥٧/م) ، و« تاريخ دمشق » (٥٩/٢٠٠) من قول سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما .
(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٩٧) .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ثلاثٌ لا يسلَمُ أحدٌ منهنَّ : الطِّيَرةُ ، وسُوء الظنِّ ، والحسدُ ؛ فإذا تطيَّرتَ . . فلا ترجِعْ ، وإذا ظننتَ . . فلا تحقِّقْ ، وإذا حسدتَ . . فلا تبغِ** »[1] .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١١٢٩) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (١٩٥٠٤) ، والطِّيرة : التشاؤم بالشر .

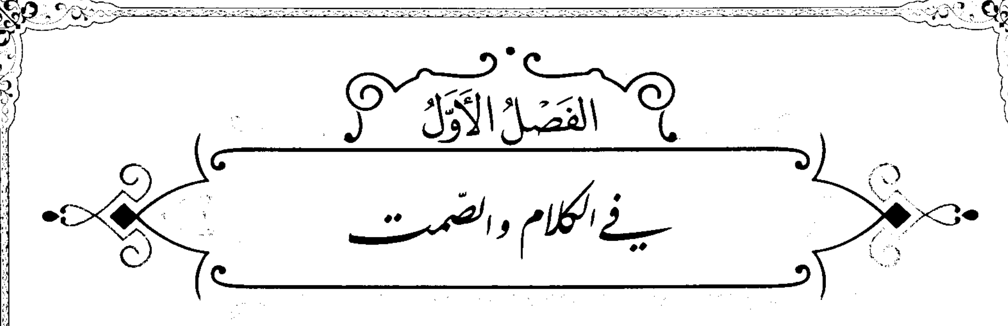
فصل
[أدب المواضعة والاصطلاح]

وأما أدب المواضعة والاصطلاح. . فضربان[1] :

أحدهما : ما تكون المواضعة في فروعه ، والعقل موجِبٌ لأصوله .

والثاني : ما تكون المواضعة في فروعه وأصوله ، وذلك يتضح في الفصول التي نذكرها إذا سُبِرت ؛ **وهي ثمانية** .

(١) **وأما أدب المواضعة** : معطوف علىٰ قوله فيما سبق : (فأما أدب الرياضة والاستصلاح) اللذينِ هما قسمان من الأدب اللازم للإنسان عند نشوئه وكبره ، فلما فرغ من بيان أدب الرياضة في ستة فصولٍ . . شرع في تفصيل أدب المواضعة الذي يؤخذ تقليداً ، علىٰ ما استقرَّ عليه اصطلاح العقلاء ، واتفق عليه استحسان الأدباء . انظر « منهاج اليقين » (ص٤٤٩) .



اعلم : أنَّ الكلام ترجمان يعبِّر عن مستودعات الضمائر ، ويخبر بمكنونات السرائر ، لا يمكن استرجاع بوادره ، ولا يُقدَر علىٰ ردِّ شوارده ، **فحقٌّ على العاقل** : أن يتحرَّزَ من زَلَله بالإمساك عنه ، أو بالإقلال منه .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **رَحِمَ اللهُ مَن قال خيراً فغنِمَ ، أو سكَتَ فسَلِمَ** »(١) .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لمعاذ : « **يا معاذُ ؛ أنتَ سالمٌ ما سكَتَّ ، فإذا تكلَّمْتَ . . فعليكَ أو لكَ** »(٢) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**اللسان معيارٌ ، أطاشَه الجهلُ ، وأرجحَه العقلُ**)(٣) .

وقال بعض الحكماء : (**الزم الصمتَ تعد حكيماً ، جاهلاً كنتَ أو عليماً**)(٤) .

وقال بعض الأدباء : (**سعِد مَن لسانُه صَمُوتٌ ، وكلامُه قُوتٌ**) .

وقال بعض العلماء : (**مِن أعودِ ما يتكلَّم به العاقل : ألا يتكلَّمَ إلا بحاجته ، أو حُجَّته ، ولا يتفكَّر إلا في عاقبته ، أو آخرته**)(٥) .

وقال بعض البلغاء : (**الزم الصمتَ ؛ فإنَّه يكسبك صفوَ المحبّة ، ويؤمِّنك سوءَ المَغبّة ، ويلبسك ثوبَ الوَقار ، ويكفيك مؤونةَ الاعتذار**) .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٥٨٩) ، والشهاب في « مسنده » (٥٨٢) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٦٠٨) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ٧٣) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٣) أورده في « البصائر والذخائر » (٧/ ٤٧) ، و« لباب الآداب » (ص ٢٧١) ، **وأطاشه** : خفَّفه وأطلقه جهل صاحبه ، **وأرجحه العقل** : أثقله وقيده عقله .

(٤) أورده في « الموشىٰ » (ص ٩) .

(٥) في (هـ) : (من أعوز ما يتكلم به العاقل) أي : أصعبه وأشده .

وقال بعض الفصحاء : (**اعقِلْ لسانَك إلا عن حقٍّ** توضحه ، **أو باطلٍ** تدحضُه ، **أو حكمةٍ** تنشرُها ، **أو نعمةٍ** تشكرُها) .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الوافر]

رأيـتُ العِـزَّ فـي أدبٍ وعَقْـلٍ ... وفـي الجَهـلِ المَـذَلّـةُ والهَـوانُ
ومـا حُسـنُ الـرِّجـالِ لهـم بحُسـنٍ ... إذا لـم يُسعِـدِ الحُسـنَ البَيـانُ
كفـىٰ بـالمـرء عيبـاً أن تـراهُ ... لـه وجـهٌ وليـس لـه لِسـانُ

واعلم : أن للكلام شروطاً ، لا يسلم المتكلِّم من الزَّلل إلا بها ، ولا يعرىٰ من النقص إلا أن يستوعبها ؛ **وهي أربعة** :

فالشرط الأول : أن يكون الكلامُ لداعٍ يدعو إليه ؛ إمّا في اجتلاب نفع ، أو دفع ضرر .

والشرط الثاني : أن يأتيَ به في موضعه ، ويتوخّىٰ به إصابة فرصته .

والشرط الثالث : أن يقتصرَ منه علىٰ قدر حاجته .

والشرط الرابع : أن يتخيَّر اللفظ الذي يتكلَّم به .

فهٰذه أربعة شروط ، متىٰ أخلَّ المتكلِّم بشرطٍ منها . . فقد أوهن فضيلة باقيها ، وسنذكر من تعليل كلِّ شرطٍ منها ما يُنبىء عن لزومه .

فأمّا الشرط الأول : وهو الداعي إلى الكلام ؛ فلأنَّ ما لا داعيَ إليه هذَيانٌ ، **وما لا سبب له هُجرٌ**[2] .

ومَن سامح نفسَه في الكلام إذا عنَّ ، ولم يُراعِ صحّةَ دواعيه ، وإصابةَ معانيه . . **كان قولُه مرذولاً** ، ورأيُه معلولاً ؛ **كالذي حكى ابنُ عائشة** : أنَّ شاباً

---

(١) أورد البيتين الأخيرين المبرد في « الكامل » (٢/ ٦٥٢) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٢٧٣٣) ، وليس له لسان : يجلب منافعه ، ويدفع مضاره ؛ ولذا شرع الوكالة في الدعاوي لإظهار الحق .

(٢) **الهُجْر** : قبيح الكلام .

كان يجالس الأحنف ويطيل الصمت ، **فأعجب ذلك الأحنفَ** ، فخلَتِ الحلقةُ يوماً ، فقال له الأحنف : (تكلَّمْ يا بنَ أخي ، فقال : **يا عمِّ ؛ أرأيتَ لو أنَّ رجلاً سقط من شُرفة هـٰذا المسجدِ** . . كان يضرُّه شيء ؟ فقال : **يا بنَ أخي ؛ ليتنا تركناكَ مستوراً** ! !) ثم تمثَّل الأحنف بقول الأعور الشَّنِّيِّ : [من الطويل]

وكائنْ ترىٰ من صامتٍ لكَ مُعجِبٍ ... زيـادتُـه أو نقصُـه فـي التَّكلُّـمِ
لسانُ الفتىٰ نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ... فلم يبقَ إلا صورةُ اللَّحمِ والدَّمِ[(١)]

وكالذي **حُكي** عن أبي يوسف الفقيه صاحب أبي حنيفة رحمهما الله تعالىٰ : أنَّ رجلاً كان يجلس إليه فيطيل الصمتَ ، فقال له أبو يوسف : (ألا تسألُ ؟ قال : بلىٰ ، متىٰ **يفطرُ الصُّيَّامُ** ؟ قال : إذا غربت الشمسُ ، قال : **فإنْ لم تغربِ الشمسُ إلىٰ نصف الليل** ؟) ، فتبسَّم أبو يوسف ، وتمثَّل ببيتي الخَطَفىٰ جدِّ جرير : [من الطويل]

عجِبـتُ لإزراءِ الغبـيِّ بنفسِـهِ ... وصمتِ الذي قد كان بالعلم أعلَما
وفـي الصَّمـتِ سَتْرٌ للغبـيِّ وإنَّمـا ... صحيفـةُ لـبِّ المـرءِ أنْ يتكلَّمـا[(٢)]

قال أقضى القضاة رحمه الله : وممّا أُطرِفُكَ به عنِّي : أني كنت يوماً في مجلسي بالبصرة وأنا مُقبلٌ علىٰ تدريس أصحابي ، إذ دخل شيخٌ مسنٌّ قد ناهز الثمانين أو جاوزها ، فقال لي : **قد قصدتُك بمسألةٍ اخترتُك لها** .

فقلت : سَلْ ، عافاك الله تعالىٰ ، **وظننته يسأل عن حادثٍ نزل به** .

فقال : **أخبرني عن نجم إبليس ونجم آدم عليه السلام ما هو** ؛ فإنَّ هـٰذين لعظم شأنهما لا يُسأل عنهما إلا علماءُ الدِّين ؟!

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٣١) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقِّه » (٦٩١) ، **وكائن** : أصله (أي) دخلت الكاف عليه ، وصارت بمعنىٰ (كم) الخبرية ، والنون تنوينٌ أثبت في الخط علىٰ غير قياس ، **والمعنىٰ** : وكم صامتٍ يعجبك صمته فتستحسنه ، وإنما تظهر زيادته علىٰ غيره ونقصانه عند تكلمه .
(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢٥١) ، **والخَطَفَىٰ** ـ بفتحات وقصر الألف ـ : لقب حذيفة جد جرير .

فعجبتُ وعجب مَن في مجلسي من سؤاله ، وبدر إليه قومٌ منهم بالإنكار والاستخفاف ، فكففتُهم ، وقلت : هٰذا لا يقتنع مع ما يظهر من حاله إلا بجواب مثله ، فأقبلتُ عليه وقلت : يا هٰذا ؛ إنَّ المنجِّمين يزعمون : أنَّ نجوم الناس لا تُعرَف إلا بمعرفة مواليدهم ؛ فإن ظفرتَ بمَن يعرف ذلك . . فاسأله .

فحينئذٍ أقبل عليَّ ، وقال : جزاك الله خيراً ، ثم انصرف مسروراً ، فلمّا كان بعد أيّام . . عاد وقال : ما وجدتُ إلىٰ وقتي هٰذا مَن يعرف مولد هٰذين .

فانظر إلىٰ هٰؤلاء كيف أبان الكلامُ عن جهلهم ، وأعرب السؤالُ عن نقصهم ؛ إذ لم يكن لهم داعٍ إليه ، ولا رَوِيّةٌ فيما تكلَّموا به ، ولو صدر عن رَوِيّةٍ ، ودعا إليه داعٍ . . لَسلِموا من شَيْنه ، وبرئوا من عيبه .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لسانُ العاقلِ مِن وراء قلبه ، فإذا أراد الكلامَ . . رجع إلىٰ قلبه ؛ فإن كان له . . تكلَّمَ ، وإن كان عليه . . أمسكَ ، وقلبُ الجاهل مِن وراءِ لسانِهِ ، يتكلَّمُ بكلِّ ما عرَضَ له »(١) .

وقال عمر بن عبد العزيز : (مَن لم يعُدَّ كلامَه من عمله . . كثُرت خطاياه)(٢) .

وقال بعض الحكماء : (عقلُ المرء مخبوءٌ تحتَ لسانه)(٣) .

وقال بعض البلغاء : (احبِسْ لسانَك قبلَ أن يُطيلَ حبسَكَ ، أو يُتلفَ نفسَكَ ، فلا شيءَ أَولىٰ بطول حبسٍ من لسانٍ يقصر عن الصواب ، ويسرع إلى الجواب) .

وقال أبو تمام الطائيُّ(٤) : [من الوافر]

وممَّا كانتِ الحُكَماءُ قالَتْ ... لسانُ المَرءِ مِن تَبَعِ الفُؤادِ

وكان بعض الحكماء يحسِمُ الرخصةَ في الكلام ، ويقول : (إذا جالست

---

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٥٤٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٨٤) من قول الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٢٤٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٨٠) .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ١٧١) ، وابن عبد البرّ في « أدب المجالسة » (ص ٤٤) .

(٤) البيت في « ديوانه » (١/ ٣٧٥) ؛ وفي (أ) : (من خدم الفؤاد) .

الجُهّالَ . . فأنصِتْ لهم ، وإذا جالستَ العلماءَ . . فأنصِتْ لهم ؛ فإنَّ في إنصاتك عن الجُهّال زيادةً في الحِلم ، وفي إنصاتك للعلماء زيادةً في العِلم) .

وأمّا الشرط الثاني : وهو أن يأتيَ بالكلام في موضعه ؛ فإنَّ الكلام في غير حينه لا يقع موقعَ الانتفاع به ، وما لا يُنتفَع به من الكلام . . فقد تقدَّم القولُ فيه بأنَّه هذَيان وهُجر ؛ فإن قدَّم ما يقتضي التأخيرَ . . كان عجَلةً وخُرقاً ، وإن أخَّر ما يقتضي التقديمَ . . كان توانياً وعَجْزاً ؛ لأنَّ لكل مقامٍ قولاً ، وفي كل زمانٍ عملاً .

وقد قال الشاعر[1] : [من الكامل]

تضَعُ الحديثَ علىٰ مَواضِعِهِ ... وكلامُها مِن بعدِهِ نَزْرُ

وأمّا الشرط الثالث : وهو أن يقتصرَ منه علىٰ قدر حاجته ؛ فإنَّ الكلام إذا لم ينحصر بالحاجة ، ولم يتقدَّر بالكفاية . . لم يكن لحدِّه غايةٌ ، ولا لقَدْره نهايةٌ ، وما لم يكن من الكلام محصوراً . . كان إمّا حَصَراً إن قصُر ، أو هَذَراً إن كثُر .

رُوي أنَّ أعرابيّاً تكلَّم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوَّل ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كَمْ دونَ لسانِكَ مِن حِجابٍ ؟ » فقال : شَفَتايَ وأسناني ، قال : « فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يكرَهُ الانبعاقَ في الكَلامِ ، فنضَّرَ اللهُ وَجهَ امرىءٍ أوجَزَ في كلامِهِ ، واقتصرَ علىٰ حاجتِهِ »[2] .

وحُكي : أنَّ بعض العلماء رأىٰ رجلاً يكثر الكلام ، ويقلُّ السكوت ، فقال : (إنَّ الله تعالىٰ إنَّما خلق لك أذنين ولساناً واحداً ؛ ليكون ما تسمعُه ضعفَ ما تتكلَّم به)[3] .

---

(١) البيت لعمرو بن أحمر الباهليّ في « ديوانه » (ص ٩٠) .

(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (٨/ ١٥٥) ، والانبعاق : التوسُّع في الكلام ، والتكثُّر منه ، والاندفاع إليه .

(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٤٦٥) ، و« بهجة المجالس » (٢/ ١٨٢) .

وقال بعض الحكماء : (مَن كثر كلامُه . . كثرت آثامُه)[١] .

وقال ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه : (**أُنذِرُكم فُضولَ المنطق**)[٢] .

وقال بعض البلغاء : (**كلامُ المرء** : بيانُ فضله ، وترجمانُ عقله ، **فاقصره على الجميل** ، واقتصر منه على القليل ، وإياك وما يُسخِط سلطانك ، أو يُوحشُ إخوانَك ، **فمَن أسخط سلطانَه** . . تعرَّض للمنيّة ، **ومَن أوحش إخوانَه** . . تبرّأ من الحرّيّة)[٣] .

وقال بعض الشعراء[٤] : [من الكامل]

وَزِنِ الكَلامَ إذا نطَقْتَ فإنَّما ... يُبدِي عُيُوبَ ذوِي العُقُولِ المَنطِقُ

ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان : تقصيرٌ يكون حَصَراً ، وتكثيرٌ يكون هَذَراً ، **وكلاهما شَينٌ** ، وشَينُ الهَذَرِ أشنعُ ، وربَّما كان في الغالب أخوفَ .

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **وهل يَكُبُّ الناسَ علىٰ مَناخِرِهِمْ في نارِ جَهَنَّمَ إلا حَصائدُ ألسِنَتِهِمْ** ؟ »[٥] .

وقال بعض الحكماء : (**مَقتَلُ الرجل بينَ فكَّيه**)[٦] .

وقال بعض البلغاء : (**الحَصَرُ خيرٌ من الهَذَرِ** ؛ لأنَّ الحَصَرَ يُضعفُ الحُجّةَ ، والهَذَرَ يُتلفُ المُهجةَ) .

وقال بعض الشعراء[٧] : [من المتقارب]

رأيتُ اللِّسانَ علىٰ أهلِهِ ... إذا ساسَهُ الجَهلُ لَيثاً مُغِيرا

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٤٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٨٩) من قول شُفَيّ بن ماتع الأَصبَحيّ .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٧٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٦٤٤) .

(٣) أورده في « غرر الخصائص » (ص١٤٧) .

(٤) البيت لصالح بن عبد القدّوس في « ديوانه » (ص ١٢١) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤١٣)، والترمذي (٢٦١٦) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٦) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٨٧٩) ، وأورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٣١) من قول أكثم بن صيفيّ رحمه الله تعالىٰ .

(٧) أورد البيت في « عيون الأخبار » (١/ ٣٣٠) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٨٧٩) .

وقال آخر[١] : [من المتقارب]

ويـا رُبَّ ألسِنَـةٍ كـالسُّيـوفِ ... تُقَطِّـعُ أعنـاقَ أصحـابِهـا
ومـا ينتقِصْ مـن سِبابِ الرِّجالِ ... يَـزِدْ فـي نُهـاهـا وألبـابِهـا

وقد ذهب بعضهم إلىٰ أنَّ الكلام إذا كثر عن قدر الحاجة ، وزاد علىٰ حدِّ الكفاية ، وكان صواباً لا يشوبُه خَطَل ، وسليماً لا يعتوِره زَلَل . . **فهو البيانُ والسِّحرُ الحلال** .

وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذُمَّ الكلامُ في مجلسه : (**كلاّ ؛ إنَّ مَن تكلَّم فأحسن . . قدِر علىٰ أن يسكتَ فيُحسن** ، وليس كلُّ مَن سكت فأحسن . . قدر علىٰ أن يتكلَّمَ فيُحسن)[٢] .

ووصف بعضهم الكاتب فقال : (**الكاتبُ** : مَن إذا أخذ شِبراً . . كفاه ، وإنْ وجد طُوماراً . . مَلاه)[٣] .

وأنشد بعضهم في خطباء إياد[٤] : [من الكامل]

يـرمُـونَ بـالخُطَـبِ الطِّـوالِ وتـارةً ... وَحْـيَ المَـلاحِـظِ خِيفَـةَ الـرُّقَبـاءِ

وقال الهيثم بن صالح لابنه : (**يا بنيَّ ؛ إذا أقللتَ من الكلام . . أكثرتَ من الصَّواب** ، قال : يا أبتِ ؛ فإن أنا أكثرتُ وأكثرتُ ؟ يعني : كلاماً وصواباً ، قال : **يا بنيَّ ؛ ما رأيتُ موعوظاً أحقَّ بأن يكونَ واعظاً منك**)[٥] .

وأُنشدتُ لأبي الفتح البُستيِّ[٦] : [من الطويل]

تكلَّـمْ وسَـدِّدْ مـا استطَعْـتَ فـإنَّمـا ... كـلامُـكَ حَـيٌّ والسُّكـوتُ جَمـادُ

---

(١) البيتان لابن المعتزّ في « ديوانه » (١/ ٢٣) .
(٢) رواه في « ديوان المعاني » (١/ ١٤٩) ، و« تاريخ بغداد » (٨/ ٢٤٣) .
(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ١١٩) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ١٥٦) ، **والطومار** : الصحيفة ، **والمعنىٰ** : أنه يراعي المقام فيأتي بالإيجاز الوفي ، ولا يعجز عن الإطناب في محله .
(٤) أورد البيت في « البيان والتبيين » (١/ ١٥٥) ، و« العقد الفريد » (٤/ ٥٥) لأبي دُوَاد الإياديّ .
(٥) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٦٤) .
(٦) البيتان في « ديوانه » (ص ١٢٦) .

فإنْ لم تجِدْ قولاً سَديداً تقولُهُ فصَمتُكَ عن غيرِ السَّدادِ سَدادُ

وقيل لإياس بن معاوية : (**ما فيكَ عيبٌ إلا كثرة الكلام** ، قال : أفتسمعون صواباً أم خطأً ؟ قالوا : لا ، بل صواباً ، قال : **فالزيادةُ من الخير خيرٌ**) .

قال أبو عثمان الجاحظ : (وليس كما قال ؛ **لأنَّ للكلام غايةً** ، ولنشاط السامعين نهايةً ، **وما فضلَ عن مقدار الاحتمال** ، ودعا إلى الاستثقال والمَلال . . **فذلك الفاضلُ هو الهَذَرُ**)[1] .

وصدق أبو عثمان في هـٰذا ؛ **لأنَّ الإكثار منه** ـ وإن كان صواباً ـ **يُمِلُّ السامعَ** ، ويُكِلُّ الخاطرَ ؛ **فهو صادرٌ عن إعجابٍ به** ، لولاه . . لأقصرَ عنه ، **ومَن أُعجِب بكلامه** . . استرسلَ فيه ، **والمسترسِلُ في كلامه** كثيرُ الزَّلَل ، دائمُ العِثار .

قال بعض الحكماء : (**مَن أُعجِب بقوله . . أُصيب بعقله**) .

وليس للمكثر الهَذَرِ رجاءٌ يقابل خوفَه ، ولا نفعٌ يوازي ضررَه ؛ **لأنَّه يُخاف من نفسه الزَّلَلُ** ، **ومن سامعيه** السَّآمةُ والمَلَلُ ، وليس في مقابلة هـٰذين حاجةٌ داعيةٌ ، ولا نفعٌ مرجوٌّ .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **أبغضُكم إليَّ** : المتفيهِقُ المِكثارُ ، والمُلِحُّ المِهذارُ » .

وسأل رجل حكيماً فقال : (متىٰ **أتكلَّمُ** ؟ قال : إذا اشتهيتَ الصَّمتَ ، قال : **فمتىٰ أصمتُ** ؟ قال : إذا اشتهيتَ الكلامَ)[2] .

وقال جعفر بن يحيىٰ : (**إذا كان الإيجازُ كافياً** . . كان الإكثار عِيّاً ، **وإذا كان الإكثارُ واجباً** . . كان التقصير عجزاً)[3] .

وقيل في منثور الحكم : (**إذا تمَّ العقلُ . . نقص الكلام**)[4] .

---

(١) البيان والتبيين (١/ ٩٩) .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢/ ٤٧٣) ، والحكيم : عمرُ بن عبد العزيز .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٤٦) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ١٧٤) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٠٨) ، و« الفقيه والمتفقّه » (٢/ ٥٢) من قول ابن المعتزّ .

وقال بعض الأدباء : (مَن طال صمتُه . . اجتلب من الهيبة ما ينفعه ، ومن الوحشة ما لا يضرُّه)[1] .

وقال بعض البلغاء : (عِيٌّ تسلمُ به خيرٌ من نطق تندمُ عليه)[2] .

فاقتصِرْ من الكلام علىٰ ما يقيم حجّتَك ، ويبلِّغ حاجتَك ، وإياك وفُضولَه ؛ فإنَّها تزلُّ القدَمَ ، وتورثُ الندمَ .

وقال الشاعر[3] : [من الطويل]

إذا كنتَ عن أن تُحسِنَ الصَّمتَ عاجزاً فأنتَ عنِ الإبلاغِ في القولِ أعجَزُ

وقال بعض الفصحاء : (فمُ العاقل مُلجَمٌ ، إذا همَّ بالكلام . . أحجم ، وفمُ الجاهل مُطلَق ، كلَّما شاء . . أطلق) .

وقال بعض الشعراء[4] : [من البسيط]

إنَّ الكلامَ يُعِزُّ القومَ جَلْوتُهُ حتّىٰ يَلَجَّ به عِيٌّ وإكثارُ

وأما الشرط الرابع : وهو اختيار اللفظ الذي يتكلَّم به ؛ فلأنَّ اللسان عنوان الإنسان ، يترجم عن مجهوله ، ويبرهن عن محصوله ، فلزمه أن يكون بتهذيب ألفاظه حَرِيّاً ، وبتقويم لسانه مَلِيّاً .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمِّه العبّاس رضي الله عنه : « يُعجِبُني جَمالُكَ » قال : وما جَمالُ الرَّجلِ يا رسولَ الله ؟ قال : « لسانُهُ »[5] .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ١٧٤) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٨٢) .
(٢) أورده في « المستطرف » (١/ ٩٠) .
(٣) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٨٦) ، وهو زيادة من (ج) .
(٤) البيت لإبراهيم بن هَرْمةَ في « ديوانه » (ص ١٢٤) ؛ وفيه وفي (ب) : (إن الكلامَ تغرُّ القومَ خَلوتُه) .
(٥) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٧٠) .

وقال خالد بن صفوان : (ما الإنسانُ لولا اللِّسانُ إلا بهيمةً مُهمَلةً ، أو صورةً مُمثَّلةً)[1] .

وقال بعض الحكماء : (اللسانُ وزير الإنسان) .

وقال بعض الأدباء : (كلامُ المرء وافد أدبِه) .

وقال بعض البلغاء : (يُستدَلُّ علىٰ عقل الرجل بقوله ، وعلىٰ أصله بفعله) .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

وإنَّ لسانَ المرءِ ما لم تكنْ لَهُ ... حَصاةٌ علىٰ عَوراتِهِ لَدَليلُ

* * *

وليس يصحُّ اختيارُ الكلام إلا لمَن أخذ نفسه بالبلاغة ، وكلَّفها لزومَ الفصاحة ، حتّىٰ يصير متدرِّباً بها ، معتاداً لها ، فلا يأتي بكلام مستكرَه اللفظ ، ولا مختلِّ المعنىٰ ؛ لأنَّ البلاغة ليست معانيَ مفردةً ، ولا ألفاظاً عاريةً .

وإنَّما البلاغةُ : أن تكونَ المعاني الصحيحةُ مستودَعةً في ألفاظ فصيحة ، فتكونُ فصاحةُ الألفاظ مع صحّة المعاني هي البلاغةَ .

وقد قيل لليونانيّ : (ما البلاغةُ ؟ فقال : اختيارُ الكلام ، وتصحيحُ الأقسام) .

وقيل للروميّ : (ما البلاغةُ ؟ فقال : حسن الاختصار عند البديهة ، والغزارةُ يومَ الإطالة) .

وقيل للهنديّ : (ما البلاغةُ ؟ فقال : معرفةُ الفصلِ من الوصلِ)[3] .

وقيل للعربيِّ : (ما البلاغةُ ؟ فقال : ما حسُن إيجازُه ، وقلَّ مجازُه)[4] .

---

(١) رواه في « البيان والتبيين » (١/٣٥٣) ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣١٢) .

(٢) البيت لطرفة بن العبد في « ديوانه » (ص ٨٥) .

(٣) أورد ثلاثتها في « البيان والتبيين » (١/٨٨) ، و« زهر الآداب » (١/١١٨) ، والأخير فيهما للفارسيّ .

(٤) أورده في « زهر الآداب » (١/١١٨) لعليّ بن عيسى الرمّانيّ ، و« نهاية الأرب » (٧/١١) لابن المعتزّ .

وقيل للبدويّ ، فقال : (ما دون السِّحرِ ، وفوقَ الشِّعر ، يثقب الخَرْدلَ ، ويحطُّ الجَنْدلَ)[1] .

وقيل للحَضَريّ ، فقال : (ما كثر إعجازُه ، وتناسبت صدورُه وأعجازُه)[2] .

وقال ابن المقفَّع : (البلاغةُ : قلّةُ الحَصَر ، والجَراءةُ على البَشَر)[3] .

وسأل الحجّاجُ ابنَ القِرِّيَّة عن الإيجاز[4] ، فقال : (أن تقولَ فلا تبطىءَ ، وأن تُصيبَ فلا تخطىءَ ، ثم قال : أقِلْني ، قال : قد فعلتُ ، قال : هو ألاّ تبطىءَ ، ولا تخطىءَ)[5] .

وقال الشاعر[6] : [من المجتث]

خيـــرُ الكـــلامِ قَليـــلُ ... علـــىٰ كثيـــرٍ دَليـــلُ
والعِـــيُّ معنـــىً قصيـــرٌ ... يَحـــويـــهِ لفـــظٌ طَـــويـــلُ
وفـــي الكـــلامِ فُضُـــولٌ ... وفيـــهِ قـــالٌ وقِيـــلُ

وأمّا صحّة المعاني . . فتكون من ثلاثة أوجه :

أحدها : إيضاح تفسيرها ، حتّىٰ لا تكونَ مشكلةً ولا مجمَلةً .

والثاني : استيفاء تقسيمها ، حتّىٰ لا يدخلَ فيها ما ليس منها ، ولا يخرجَ عنها ما هو منها .

والثالث : صحّة مقابلاتها .

والمقابلة تكون من وجهين :

---

(١) أورده في « زهر الآداب » (١/ ٩) ، و« البصائر والذخائر » (٨/ ٢٥) لطالبيٍّ .
(٢) أورده في « زهر الآداب » (١/ ١١٨) للرمّانيّ .
(٣) أورده في « العقد الفريد » (٤/ ١٨٩) .
(٤) في (أ ، ج) : (ابن القَبَعْثَرىٰ) .
(٥) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٩٦) ، و« العقد الفريد » (٢/ ٢٦١) بين سيدنا معاوية رضي الله عنه وصُحارٍ العَبديّ رحمه الله تعالىٰ .
(٦) أورد الأبيات في « معجم الأدباء » (١/ ٤٢٦) ، وأورد البيتين الأولين في « بهجة المجالس » (١/ ٦١) لأحمد بن إسماعيل الكاتب .

ـ **أحدهما** : مقابلة المعنىٰ بما يوافقه ، وحقيقةُ هـٰذا المقاربةُ ؛ لأنَّ المعانيَ تصير متشاكلةً .

ـ **والثاني** : مقابلته بما يضادُّه ، وهو حقيقةُ المقابلة .

وليس **للمقابلة إلا أحدُ هـٰذين الوجهين** : الموافقة في الائتلاف ، والمضادّة مع الاختلاف .

* * *

وأمّا فصاحة الألفاظ . . فتكون بثلاثة أوجه :

أحدها : مجانبةُ الغريب الوَحْشيِّ ، حتّىٰ لا يمجَّه سمعٌ ، ولا ينفرَ منه طبعٌ .

والثاني : تنكُّبُ اللفظ المستبذَل ، والعدولُ عن الكلام المسترذَل ، حتّىٰ لا يستسقطه خاصّيٌّ ، ولا ينبوَ عن فهمه عامّيٌّ ؛ كما قال الجاحظ في كتاب « البيان » : (**أمّا أنا . . فلم أرَ أقواماً أمثلَ طريقةً في البلاغة من الكُتّاب** ؛ وذلك أنَّهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعِّراً وَحْشيّاً ، ولا ساقطاً عامّيّاً)[١] .

والثالث : أن تكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبةٌ ومطابقةٌ .

* * *

أمّا المطابقة : فهو أن تكون الألفاظ كالقواليب لمعانيها ، فلا تزيد عليها ، ولا تقصر عنها .

وقد قال بشر بن المعتمر في وصيّته في البلاغة : (**إذا لم تجدِ اللفظة واقعةً موقعَها** ، ولا صائرةً إلىٰ مستقرِّها ، **ولا حالّةً في مركزها** ، بل وجدتَها قلِقةً في مكانها ، نافرةً عن موضعها . . **فلا تُكرِهْها على القرار في غير موضعها** ؛ **فإنَّك إذا** لم تتعاطَ قريضَ الشعر الموزون ، ولم تتكلَّفِ اختيارَ الكلام المنثور . . لم يعِبْكَ بترك ذلك أحدٌ ، **وإذا أنت تكلَّفتَهما ولم تكن حاذقاً فيهما . . عابَكَ مَن أنت أقلُّ عيباً منه** ، وأزرىٰ عليك **مَن أنت فوقَه**)[٢] .

* * *

---

(١) البيان والتبيين (١/١٣٧) .

(٢) أورده في « الصناعتين » (ص ١٣٤) ، و« سر الفصاحة » (ص ١٧٢) .

وأمّا المناسبةُ : فهو أن يكون المعنىٰ يليق ببعض الألفاظ ؛ إمّا لعُرْفٍ مستعمَل ، أو لاتّفاقٍ مستحسَن ، حتّىٰ إذا ذُكِرت تلك المعاني بغير تلك الألفاظ . . كانت نافرةً عنها وإن كانت أفصحَ وأوضحَ ؛ لاعتياد ما سواها .

وقد قال بعض البلغاء : (لا يكون البليغُ بليغاً حتّىٰ يكونَ معنىٰ كلامِه أسبقَ إلىٰ فهمك من لفظه إلىٰ سمعك)[١] .

فأمّا مُعاطاةُ الإعراب ، وتجنُّبُ اللَّحْن . . فإنّما هو من صفات الصواب ، والبلاغةُ أعلىٰ منه رتبةً ، وأشرفُ منزلةً ، وليس لمَن لحن في كلامه مدخلٌ في الأدباء ، فضلاً عن أن يكون في عِداد البلغاء الفصحاء .

واعلم : أنَّ للكلام آداباً ، إنْ أغفلها المتكلِّمُ . . أذهب رونقَ كلامه ، وطمس بهجةَ بيانه ، ولها الناسُ عن محاسن فضله بمساوىء أدبه ، وعدلوا عن نشر مناقبه بذكر مثالبه .

فمن آدابه : ألا يتجوَّزَ في مدح ، ولا يسرفَ في ذمٍّ وإن كانت النَّزاهةُ عن الذَّمِّ كرماً .

والتَّجوُّزُ في المدح مَلَقٌ يصدر عن مَهانة ، والسَّرَفُ في الذمِّ انتقامٌ يصدر عن شرٍّ ، وكلاهما شَينٌ وإن سلِمَ من الكذب .

رُوي أنَّه لمَّا قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وفدُ تميم . . سأل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ابنَ الأهتم عن قيس بن عاصم ، فمدحَه ، فتكلَّم قيسٌ بما غضبَ منه ابنُ الأهتم ، فذمَّه[٢] ، فقال له رسولُ اللهِ : « ما هٰذا ؟ مَدَحْتَهُ ثمَّ ذَمَمْتَهُ !! » فقال قيسٌ : واللهِ يا رسولَ اللهِ ؛ لقد علم أنِّي خيرٌ ممّا وصف ؛ ولٰكنَّه حسدني .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ١١٥) ، و« نهاية الأرب » (٧/ ٨) .

(٢) قال في « منهاج اليقين » (ص٤٦٧) : (وهما الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم . . . فما وقع في نسخ المتن من قيس بن عاصم في الموضعين وهمٌ ؛ لما سبق أن قيساً هو أول من وأد في الجاهلية ولم يذمه به) .

فذمَّه عمرٌو ، وقال : واللهِ يا رسولَ اللهِ ؛ لقد صدقتُ في الأُولىٰ ، وما كذبتُ في الأخرىٰ ؛ لأنِّي رضيتُ في الأُولىٰ ، فقلتُ أحسنَ ما علمتُ ، وسخطتُ في الأخرىٰ ، فقلتُ أقبحَ ما علمتُ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً »[١] .

علىٰ أنَّ السَّلامة من الكذب في المدح والذمِّ متعذِّرةٌ ، لا سيَّما إذا مدح تقرُّباً ، وذمَّ حَنَقاً .

حُكي عن الأحنف بن قيس أنه قال : (سهرتُ ليلةً أفكِّر في كلمةٍ أُرضي بها سلطاني ، ولا أُسخِطُ بها ربِّي ؛ فما وجدتُها)[٢] .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه : (إنَّ الرجل ليدخل على السلطان ومعه دِينُه ، فيخرج وما معه دِينُه) قيل : وكيف ذلك ؟ قال : (يُرضيه بما يُسخِط اللهَ تعالىٰ)[٣] .

وسمع ابنُ الروميِّ رجلاً يصف رجلاً ويبالغ في مدحه، فأنشأ يقول[٤]: [من المتقارب]

إذا مـا وصَفْـتَ امـرأً لامـرىءٍ ... فـلا تَغْـلُ فـي وصفِـهِ واقصِـدِ
فـإنَّـكَ إنْ تَغْـلُ تَغْـلُ الظُّنُـو ... نُ فيـهِ إلـى الأمَـدِ الأبعَـدِ
فيَضْـؤُلُ مـن حيـثُ فَخَّمْتَـهُ ... لفضـلِ المَغِيـبِ علـى المَشهَـدِ

ومن آدابه : ألا تبعثَه الرغبة ولا الرهبة على الاسترسال في وعدٍ أو وعيدٍ يعجز عنهما ، ولا يقدر على الوفاء بهما ؛ فإنَّ مَن أطلق بهما لسانَه ، وأرسل فيهما

---

(١) كذا أورده في « لباب الآداب » (ص ٣٥٤) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٦١٣) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣٠٩٦) بين الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، وبحضور قيس بن عاصم رضي الله عنهم .
(٢) أورده في « نثر الدرّ » (٥/ ٥٣) ، و« الكشكول » (٢/ ١٥٥) .
(٣) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبير » (٨/ ٣٢٧) ، وهنّاد في « الزهد » (١١٥٢) .
(٤) الأبيات في « ديوانه » (٢/ ٦٨٨) ، والغلو : تجاوز الحد ، والقصد : المجانبة عن الإفراط ، وتغل : الأول من الغلو ، والثاني من الغليان ، وأَمَدُ الشيء : غايته ومنتهاه .

عِنانَه ، ولم يستثقِلْ من القول ما يستثقلُه من العمل . . **صار وعدُه نَكْثاً ، ووعيدُه عجزاً** .

وقد حُكي : أنَّ سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام **مرَّ بعصفورٍ يدور حولَ عصفورة** ، فقال لأصحابه : (**هل تدرون ما يقولُ لها ؟**) قالوا : لا ، يا نبيَّ الله .

قال : (**إنَّه يخطُبُها إلىٰ نفسه** ، ويقول : زوِّجيني نفسَكِ . . أُسكِنْكِ أيَّ غرفِ دمشقَ شئتِ) ، قال سليمان عليه السلام : (**وكذب العصفورُ** ؛ غرفُ دمشقَ مبنيّةٌ بالصخر ، لا يقدر أن يُسكِنَها هناك ؛ **ولـٰكنْ كلُّ خاطبٍ كذّابٌ !!**)[1] .

ومن آدابه : أنه إذا قال قولاً . . حقَّقه بفعله ، وإذا تكلَّم بكلام . . صدَّقه بعمله ؛ **فإنَّ إرسالَ القول اختيارٌ** ، والعملَ به اضطرارٌ ، **ولأَنْ يفعلَ ما لم يقُلْ** أجملُ به من أن يقولَ ما لا يفعلُ .

وقد قال بعض الحكماء : (**أحسنُ الكلام** : ما لا يُحتاج فيه إلى الكلام) أي : يُكتفىٰ بالفعل من القول .

وقال محمود الورّاق[2] : [من السريع]

القـولُ مـا صـدَّقَـهُ الفِعـلُ والفِعـلُ مـا وَكَّـدَهُ العَقـلُ

لا يثبُـتُ الفـرعُ إذا لـم يَكُـنْ يُقِلُّـهُ مـن تحتِـهِ الأصـلُ

ومن آدابه : أن يراعيَ مخارج كلامه بحسَب مقاصده وأغراضه ؛ **فإنْ كان ترغيباً** . . قرنه باللِّين واللُّطف ، **وإنْ كان ترهيباً** . . خلطه بالخشونة والعُنف ؛ **فإنَّ لينَ اللفظ في الترهيب ، وخشونتَه في الترغيب** . . **خروجٌ عن موضوعهما** ، وتعطيلٌ للمقصود بهما ، فيصير الكلام لغواً ، والغرض المقصود لهواً .

---

(١) رواه في « تاريخ دمشق » (٢٢/ ٢٣٢) ، و« ربيع الأبرار » (٥/ ٢٩٠) .

(٢) البيتان في « ديوانه » (ص ١٦٩) .

وقد قال أبو الأسود الدُّؤَليُّ لابنه : (**يا بنيَّ ، إذا كنت في قوم . . فلا تتكلَّم بكلامِ مَن هو فوقَك فيمقُتوك ، ولا بكلامِ مَن هو دونَك فيزدَرُوك**)[1] .

ومن آدابه : ألا يرفعَ بكلامه صوتاً مستكرَهاً ، ولا ينزعجَ له انزعاجاً مستهجَناً ، وليكفُفْ عن حركةٍ تكون طيشاً ، وعن إشارة تكون عبثاً ؛ **فإنَّ نقصَ الطيش أكثرُ من فضل البلاغة** .

وقد حُكي : أنَّ الحجّاج قال لأعرابيٍّ : (**أخطيبٌ أنا** ؟ قال : نعم ؛ **لولا أنَّك تكثر الردَّ ، وتشير باليدِ ، وتقول : أمّا بعدُ**)[2] .

ومن آدابه : أن يتجافىٰ هُجْرَ القول ، ومستقبَحَ الكلام ، وليعدل إلى الكناية عمّا يُستقبَحُ صريحُه ، ويُستهجَنُ فصيحُه ، **ليبلغ الغرضَ ولسانُه نَزِهٌ** ، وأدبُه مصونٌ .

وقد قال محمد بن عليٍّ في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ قال : (**كانوا إذا ذكروا الفُروجَ . . كَنَوا عنها**)[3] .

وكما أنه يصون لسانه عن ذلك . . **فهكذا يصون سمعَه عنه** ، فلا يسمعُ خَناً[4] ، ولا يصغي إلىٰ فُحش ؛ **فإنَّ سماع الفُحش داعٍ إلىٰ إظهاره** ، وذريعةٌ إلىٰ إكثاره ، **وإذا وُجد عن الفُحش معرِضاً . . كفَّ قائلُه** ، وكان إعراضُه أحدَ النَّكيرَين ؛ **كما أنَّ استماعَه أحدُ الباعثَين** .

---

(١) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣٤٢) ، و« ربيع الأبرار » (٢/ ٥٧٧) .

(٢) أورده في « الصناعتين » (ص ١٥٩) ، و« نثر الدرّ » (٦/ ٨٢) ، **والأعرابيُّ** : هو ابنُ القِرِّيّة ، وتكلم ابن السماك يوماً وجارية له تسمع ، فلما انصرف إليها . . قال : (**كيف سمعتِ كلامي** ؟ قالت : **ما أحسنه ؛ لولا أنك تكثر ترداده** !! فقال : أردده حتىٰ يفهمه مَنْ لم يفهمه ، قالت : **إلىٰ أن يفهمه من لم يفهمه . . قد ملَّه من فهمه**) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٧٨٥١) عن مجاهد ، وأورده في « محاضرات الأدباء » (٣/ ٥٠٤) عن محمد بن سيرين رحمه الله تعالىٰ .

(٤) **الخنا** : الفحش في المنطق .

وأنشدني أبو الحسن بن أبي الحارث الهاشميُّ[1] : [من المتقارب]

تحـرَّ مِـنَ الطُّـرْق أوسـاطَهـا   وعَـدِّ عـنِ المـوضِـع المشتبِـهْ
وسَمْعَكَ صُنْ عن سَماعِ القَبيحِ   كصَـوْنِ اللِّسـانِ عـنِ النُّطـقِ بِـهْ
فـإنَّـكَ عنـدَ استمـاعِ القَبيـحِ   شَـريـكٌ لقـائِلِـهِ فـانتَبِـهْ

وممّا يجري مَجرىٰ فُحش القول وهُجْره في وجوب اجتنابه ، ولزوم تنكُّبه . . ما كان شَنِعَ البديهةِ[2] ، مستنكَرَ الظاهرِ وإن كان مع التأمُّل سليماً ، وبعد الكشف والرَّوِيّة مستقيماً ؛ كالذي رواه الأزديُّ ، عن الصُّوليِّ لبعض المتكلِّفين من الشعراء[3] : [من مجزوء الرمل]

إنَّنـــي شيــــخٌ كبيــــرٌ   كــــافــــرٌ ، بـــــاللهِ سِيـــرِي
أنـــتِ ربِّـــي ، وإلٰهـــي   رازقُ الطِّفـــــلِ الصَّغيـــــرِ

يريد بقوله : (كافرٌ) أي : لابسٌ ؛ لأنَّ الكفرَ التغطيةُ ؛ ولذلك سُمِّي الكافر بالله كافراً ، لأنه قد غطَّىٰ نعمةَ الله بمعصيته .

وقوله : (باللهِ سِيرِي) أقسم عليها بالله تعالىٰ أن تسيرَ .

وقوله : (أنتِ ربِّي) يعني : ربِّي ولدَكِ ؛ من التربية ، (وإلٰهي رازقُ الطِّفلِ الصَّغيرِ) كما أنَّه رازقُ الجَلد الكبير .

فانظر إلىٰ هٰذا التكلُّف البَشيع ، والتعمُّق الشَّنيع ، ما اعتاضَ من حيثُ البديهةُ إذا سلم بعد الفكر والرَّوِيّة إلا لَوْماً إن حسن فيه الظنُّ ، أو ذمّاً إن قوي فيه الارتيابُ ، وقلَّما يكون ذلك إلا من خَليع بَطِر ، أو مُرتاب أَشِر .

فأمّا الحديثُ المرويُّ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تُصلُّوا على

---

(١) الأبيات لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص ٢٦٧) ، ونسبها في « الزهرة » (٢/ ٢٠٠) لعمّار بن ياسر ، وفي « معجم الأدباء » (٤/ ٩٢) للحسين بن محمد السَّهْواجيّ .
(٢) لزوم تنكُّبه : لزوم تجنبه والعدول عنه .
(٣) أورد البيتين في « الزهرة » (٢/ ٣٣١) ، وجعل قوله : (سِيرِي) مستأنفاً .

النَّبيِّ »[1] . . فخارجٌ عن هٰذا النوع من التلبيس ، وفي تأويله وجهان :

أحدهما : أنه أراد النَّهيَ عن الصلاة في المكان المرتفع المُحدَودِب ، مأخوذٌ من النَّبْوة .

والثاني : أنه أراد به الطريقَ ، ومنه سُمِّي رسلُ الله أنبياءَ ؛ لأنَّهم الطُّرقُ إليه .

وإنَّما زال عنه التلبيسُ إذ قاله النبيُّ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان من قول غيره تلبيساً شَنِعاً ـ لأنَّ موضوعَ خطابه ، وشواهدَ أحواله . . يصرفان كلامَه عن التَّجوُّز والاسترسال في أمرٍ أو نهيٍ إلىٰ ما يجوز أن يرد به شرعٌ ، وينهىٰ عنه نبيٌّ ، وليس يمتنع ذلك في غيره ؛ فلذلك ما افترق وجودُه منه ومن غيره .

ومن آدابه : أن يجتنب أمثالَ العامّة الغَوْغاء ، ويتخصَّص بأمثال العلماء والأدباء ؛ فإنَّ لكلِّ صنفٍ من الناس أمثالاً تُشاكِلُهم ، فلا تجد لساقطٍ إلا مثلاً ساقطاً ، وتشبيهاً مستقبَحاً .

وقد قال الصَّنَوبريُّ[2] : [من الوافر]

وللسُّقّاطِ أمثالٌ فمِنها ... تمثُّلُهمْ لذي الشيءِ المُريبِ
إذا ما كنتَ ذا بَولٍ صحيحٍ ... ألا فاضرِبْ بهِ وَجهَ الطَّبيبِ

ولذلك علّتان :

إحداهما : أن الأمثال من هواجس الهِمَم ، وخَطَرات النفوس فلم تكن لذي الهمّة الساقطة إلا مثلاً مرذولاً ، وتشبيهاً معلولاً .

والثانية : أن الأمثال مستخرَجةٌ من أحوال المتمثِّلين بها ، فبحسَب ما هم عليه تكون أمثالُهم .

فلهاتَين العلّتَين ما وقع الفرقُ بين أمثال الخاصّة والعامّة .

---

(١) أورده في « النهاية في غريب الحديث » (٥/١١) .

(٢) البيتان في « ديوانه » (ص ٣٩٧) ، يقال : له بول كثير ؛ أي : ولد أو عدد كثير ، وبال الماء : إذا انفجر ، ومعنى المثل : إذا كنتَ صحيحاً . . فلا تُبالِ ما صنعتَ .

وربَّما **أَلِفَ المتخصِّص مثلاً عامّيّاً** ، وتشبيهاً ركيكاً ؛ **لكثرة ما يطرق سمعَه من** مخالطة الأرذال ، فيسترسل في ضربه مثلاً ، **فيصير به في الناس مثلاً** ؛ كالذي حُكي عن الأصمعيِّ : أنَّ الرشيد سأله يوماً عن أنساب بعض العرب ، فقال : (**على الخبيرِ سقَطْتَ** يا أميرَ المؤمنين ، فقال له الفضل بن الربيع : **أسقطَ اللهُ حِسَّكَ** !! أتخاطبُ أميرَ المؤمنين بمثل هٰذا الخطاب ؟!)[1] .

فكان الفضل بن الربيع مع قلّة علمه **أعرفَ بما يُستعمَل من الكلام في محاورة** الخلفاء من الأصمعيِّ الذي هو واحدُ عصرِه ، وقَريعُ دهرِه .

وللأمثال في الكلام مواقعُ في الأسماع ، وتأثيرٌ في القلوب ، لا يكاد الكلام المرسَل يبلغ مَبلغَها ، ولا يؤثِّر تأثيرَها ؛ **لأنَّ المعانيَ بها لائحةٌ** ، والشواهدَ عليها واضحةٌ ، **والنفوسَ لها وامقةٌ** ، والقلوبَ **بها واثقةٌ** ، والعقولَ لها موافقةٌ[2] .

ولذلك ضرب الله تعالى الأمثالَ في كُتبه ، وجعلها من دلائل رُسله ، **وأوضح بها الحجّةَ علىٰ خلقه** ؛ لأنَّها في العقول مقبولةٌ ، وفي القلوب معقولةٌ .

ولها أربعة شروط :

أحدها : صحّةُ التشبيه ، وإصابة التمثيل .

والثاني : أن يكونَ العِلمُ بها سابقاً ، والكلُّ عليها موافقاً .

والثالث : أن يسرعَ وصولُها إلى الفَهْم ، ويتعجَّل تصوُّرها في الوَهْم ، من غير ارتياءٍ في استخراجها ، ولا كدِّ فكرٍ في استنباطها .

والرابع : أن تناسب حالَ السامع ؛ لتكون أبلغَ تأثيراً ، وأحسنَ موقعاً .

فإذا جمعت الأمثالُ المضروبة هٰذه الشروطَ الأربعة . . **كانت زينةَ الكلام** ، وجَلاءَ المعاني ، ونذيرَ الأفهام .

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/٣٨٦) بنحوه .

(٢) **وامقة** : عاشقة محبة لتلك الغرابة .